عبد الله بن ســـبأ

للدكتور جواد على

— ٤ —

رأيت أن مجيء عبد الله بن سبأ إلى البصرة ونزوله على بنى عبد القيس إنما كان على زعم « يزيد الفقعسى » فى السنة الثالثة من حكم عبد الله بن عامر الذى ولى إمارة البصرة فى عام ٢٩ للهجرة . أى فى سنة ٣٢ — ٣٣ للهجرة . وإنه نزل على حكيم ابن جبلة ، ويزعم صاحب هذا الحديث الذى دونه الطبرى أنه ، أى حكيم بن جبلة كان من أشرار الناس ومن مشاهير قطاع الطرق وأنه كان يذهب إلى أرض فارس « فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الأرض ويصيب من يشاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان بن عفان فكتب إلى عبد الله بن عامر أن احبسه ؛ ومن كان مثله ، فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً . فحبسه ، فكان لا يستطيع أن يخرج منها »(١) وقد كان « حكيم بن جبلة » من الناقمين والشاغبين على الحكومة ، وكان على رأس الجماعة التى ذهبت إلى المدينة واشتركت فى الفتنة المؤسفة التى أدت إلى استشهاد الخليفة ، وكان قد أظهر أنه يريد الحج ، وكان فى الواقع على اتفاق مع سائر المشاغبين وعلى اتصال محكم بمشاغبى الكوفة وأهل مصر(٢) .

ولست أزعم لك أن نزول عبد الله بن سبأ فى دار هذا اللص المشاغب كان حقاً ، ولست أزعم لك أيضاً أن ذلك كان باطلاً ؛ ولكنى لا أبيح لك سراً أن قلت لك بأنى غير مطمئن إلى هذا الحديث الذى يرويه « يزيد الفقعسى » ولا إلى أكثر أحاديث هذا الراوية . لقد كان هوى « ابن جبلة » وجماعته من أهل البصرة مع « طلحة » فلم اختار ابن سبأ النزول على هذا الرجل من بين سائر رجال البصرة . وقد كان هواه مع على . وقد كان فى البصرة أناس يميلون إلى على أيضاً ، والذى أنزل هذا الرجل على « حكيم بن جبلة » فى نظرى هو « يزيد » نفسه صاحب هذا الحديث لغرض سينجلى لك فيما بعد .

لم يتحدث الطبرى عن نشاط عبد الله بن سبأ فى البصرة ولا عن الفتنة التى أثارها فى جنوب العراق . وكل ما قاله أن الوالى بعد ما سمع بخبر هذا الذى « الذى رغب فى الإسلام ورغب فى جوار ابن عامر » قال له « أخرج عنى ، فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فاستقر بمصر(٣) .

ولم يتحدث الطبرى ولا غيره عن نشاط هذا الذى فى الكوفة . والظاهر من كلامه أن إقامته بها كانت قصيرة ، وأنه لم يحصل على النتائج التى كان يريدها من هذا البلد ، فسافر إلى الشام . ولا ندرى بالطبع متى وصل الشام ، والذى نستطيع أن نقوله أنه بلغ مقر « معاوية بن أبى سفيان » بعد خروجه من الكوفة ، وأن ذلك كان بعد سنة ٣٢ — ٣٣ للهجرة .

ويدعى الطبرى استناداً على أقوال « يزيد الفقعسى » أيضاً أنه

---

(١) الطبرى حـ ٥ ص ٩٠

(٢) شرح نهج البلاغة لعز الدين أبى حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنى الشهير بابن أبى الحديد حـ ١ ص ١٦٢ طبعة دار الكتب العربية الكبرى .

(٣) الطبرى حـ ٥ ص ٩٠

بمقدار فهمها لكنهه واستصفائها لسريرته ؟

على أن القدرة على التقمص لا تكفى فى اكتسابها الرغبة والإرادة والمحاولة ، وإنما هى فى أغلب ما تكون استجابات نفسية تستبد بما بين أحناء الضلوع .

وهذه القدرة على التقمص لا تسلس بالمظاهر ، ولا تتأتى بضروب التكلف والصنعة ، فلا بد أن تستند إلى مؤثرات طبيعية وتأثرات باطنة .

وحسبنا مثلا لذلك شخصية « المتعبد » ، فقد تعاقب على محاولة تقمصها ألوف من سدنة المعابد وعمار الصوامع متخذين لها أقصى ما فى الوسع من ظواهر ورسوم ، يسبغون السوح ويرددون الأناشيد ويرتلون الصلوات ، ولكن القليلين من هؤلاء جميعا هم الذين استطاعوا أن يتقمصوا شخصية « المتعبد » على حقيقتها ، فوسموا تعبيرهم عن هذه الشخصية بميسم الخلود . وهذه أناشيد « أخناتون » التى يناجى بها ربه ما تزال تتقد فيها حرارة الإيمان ، لأنها وحى قوى لمتعبد صادق الإحساس ، صادق الأداء .

محمود تيمور

« لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال يا أبا ذر ، ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ؛ ألا إن كل شيء لله ؟ كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين » فتأثر أبو ذر من مقالته وذهب إلى معاوية فقال : « ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال فلا تقله . قال فإنى لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول مال المسلمين »(١) .

وخرج أبو ذر مغضباً من معاوية غير مقتنع بقوله ، وصار ينادى فى أهل الشام ويقول : « يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذاك وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس ، فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قد أعضل بى ، وقد كان من أمره كيت وكيت . فكتب إليه عثمان أن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تفكا القرح . وجهز أبا ذر إلىّ وابعث معه دليلاً وزوده وارفق به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تملك ما استمسكت . فبعث بأبى ذر ومعه دليل »(٢)

وذهب « ابن سبأ » وهو بالشام إلى رجل آخر توسم فيه الانقياد والإذعان لمقالته بسهولة ، وهذا الرجل هو « أبو الدرداء » وتحدث إليه بالحديث الذى ذكره لأبى ذر محاولاً إغراءه غير أن « أبا الدرداء كان حذراً ذكياً فقال له « من أنت ؟ أظنك والله يهودياً » فأتى عبادة بن الصامت وأظهر له نفس المقالة « فتملق به فأتى به معاوية فقال : هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر »(٣)

فيظهر من حديث « يزيد الفقعسى » الذى حكاه الطبرى عن طريق « سيف » أن نداء « أبى ذر » هذا وتحريكه الفقراء على الأغنياء إنما كان بتحريض « ابن سبأ » والحديث كله كما قلت فى حاجة إلى تمحيص . فقد غادر « أبو ذر » الشام فى عام ٣٠ للهجرة ، وترك « المدينة » فى نفس هذه السنة إلى الربذة حيث أقام بها إلى أن اختاره الله إلى جواره فى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة أى قبل مجىء « ابن سبأ » إلى البصرة (١) . ومعنى هذا أن مجىء « عبد الله بن سبأ » إلى الشام كان بعد وفاة « أبى ذر » وبعد خروجه من الشام بما يزيد على سنتين .

ثم إن صاحبنا « أبو ذر » لم يكن من أولئك الرجال البسطاء السذج الذين كانوا يستجيبون لدعوة رجل لا يعرف من أمره شيئاً ، وقد رأيت أنه سبّ « كعب الأحبار » وقد كان أعلى من هذا النكرة « ابن سبأ » درجة وعلماً ومقاماً ، وأقدم من أخيه فى الدين إسلاماً ، حينما تعرض لبحث فى حضرة الخليفة الشهيد ورجل يقول لكعب الأحبار « يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا والله لتسمعن منى أو لأدخل عليك » (٢) . أو « يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا » (٣) . ثم لا يكتفى بذلك وهو فى حضرة خليفة بل يرفع محجنه فيشج ناصية كعب حتى يضطر الخليفة إلى استرضاء كعب والاعتذار منه . إن رجلاً مثل هذا لا يمكن أن يسلم نفسه إلى مسلم حديث العهد بالإسلام لم يعرف من أمره غير المشاغبة والتجول بين الأقطار . ثم يقنع بدعوته بمثل تلك السهولة التى لا تتناسب مع ما عرف عنه من صلابة أبى ذر وشدة تمسكه برأيه .

وقد روى كثير من المؤرخين قصة « أبى ذر » بشكل آخر قالوا إنه كان يتلو قوله تعالى : (والذينَ يكنزُونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولا ينفقونها فى سبيل اللهِ فبشرهُمْ بعذَاب أليم) وتعليقاته المعروفة الواردة فى حديث « يزيد الفقعسى » أيام كان فى المدينة ، وقبل ذهابه إلى الشام كان يقول ذلك لما شاهد من الثراء الذى انهال على بنى أمية وآل مروان ، فضاق أغنياء المدينة به ذرعاً فتق إلى الشام لعلمهم بأن « معاوية » رجل ذكىّ حليم يكفيهم هذا الرجل وبلاءه . فلما يئس منه ووجد أنه أصبح خطراً على أهل الشام أعاده إلى المدينة ، ثم استقر بالربذة إلى أن وافاه الأجل فى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة (٤) . والمعروف عنه أنه كان زاهداً وكان ينفق ما يصيبه من مال ويدعو إلى ذلك منذ أيام

(١) الطبرى حـ ٥ ص ٦٦ ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٤٧
(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٦٦ راجع عن علاقة عثمان بأبى ذر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد حـ ١ ص ٢٤٠ فما بعد
(٣) الطبرى حـ ٥ ص ٦٦

(١) الطبرى حـ ٥ ص ٨٠
(١) الطبرى حـ ٥ ص ٦٧
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد حـ ٢ ص ٢٤٠
(٤) الطبرى حـ ٥ ص ٦٧ ، وابن الأثير وكتب التأريخ الأخرى

الرسول . فقصة « عبـد الله بن سبأ » مع « أبي ذر » قصـة موضوعة أعتقد أن واضعها هو « يزيد » أو « سيف » ولم يؤيدها رواة آخرون مثل « زيد بن وهب » وغيرهم ممن ذكروا سبب نفي أبي ذر (١) .

ولم يتحدث « يزيد الفقعسي » صاحب أحاديث عبـد الله ابن سبأ عن نشاط هذا الذي في الشام وعن مدة إقامته في هذا البلد . والذي يفهم من أقواله أنه لم يتمكن من عمل أي شيء في « دمشق » وأن « معاوية » لم يقبض عليـه ، وأنه غادر أرض « بني أميـة » إلى أرض أخرى هي « مصر » ليزرع في ذلك البلد بذور الفتنة التي زرعها في العراق

وفي « مصر » على ما يظهر من روايات الطـبري لقي « ابن سبأ » نجاحاً كبيراً ، وترأس في هذا القطر الفتنة التي أدَّت إلى استشهاد الخليفة . ويظهر من أقوال « يزيد الفقعسي » أنه جاء وهو في مصر بمقالة جديدة تضمنت عدة آراء فيها « الرجعة » و « الوصية » و « الإمامة » ثم اختتم كل هـذه المسائل الهامة « بالطعن على الأمراء » وبالمـكاتبة مع الأمصار الأخرى في عيوب الولاة . وقد تمـكن بأساليبه المعروفة من إهاجة الرأي العام ومن تسهيم الأقطار فـكان أن غادر وفد مصر يريد الحجاز ، وكان أن غادر وفد البصرة متظـاهراً أنه يريد الحج ، وكان أن تألبت كل هذه الوفود على الخليفة ولم ترحل عن مدينة الرسول حتى قتل . وكان من أهم أبطال الفتنة بمصر « عبدالله بن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر » .

وأما الذي يظـهر من أقوال الرواة الآخرين فهو أن هـذه المقالات المنسوبة إلى « ابن سبأ » إنما كان قد وضعها في العراق وأنه وضعها في مكان مناسب جداً لمثل هذه الآراء وهو «الكوفة» التي عرفت بميلها إلى علي وأولاده ، وبانقـلابها على علي وأولاده في الوقت نفسه .

والواقع أن محيط الـكوفة هو صورة صادقة للمحيط الوسط الذي كان بين الحضارة وبين البـداوة . وبين الإطاعة للأمراء وبين الميل إلى الفوضى ومعصية الأمراء والطعن على أصحاب الحل والعـقد . ولا غرابة في ذلك فقد كانت هـذه البلدة على سيف الصحراء ، وقد كانت معصرة عصرت فيها أجناس وأنواع من البشر ، فلا عجب إن رأينا فيهـا ذلك الخليط العجيب وذلك الانقلاب السريع .

ولم يذكر أحد من الرواة غير « يزيد الفقعسي » هذه المقالة على أنها كانت من صـنع « ابن سبأ » في مصر . وحـديث « عبد الله بن سبأ » في مصر هو من روايات هـذا الراوية ليس غير . أما أصحاب الأخبار الذين تحدثوا عن « عبد الله بن سبأ » مثل « الشعبي » وأمثاله فقـد وضعوه في العراق وجعلوا مكانه الـكوفة ومنفاه « ساباط المدائن » ولم يبعـدوه إلى أكثر من ذلك كالذي فعله « يزيد » .

(للـكلام صلة)

جواد علي

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جـ ٢ ص ٢٤٠

مطبعة الرسالة

تقدم إلى عشاق الأدب

للاستاذ أحمد حسن الزيات

١ ـ وحي الرســـالة
في مجلدين

ثمن كل مجلد ٤٠ قرشاً

٢ ـ في أصول الأدب

ثمنه ٢٥ قرشاً

٣ ـ دفاع عن البلاغة

ثمنه ١٥ قرشاً

تطلب هذه الـكتب من دار الرسالة
ومن المـكتبات الشهيرة عدا أجرة البريد